المثاقفة وإشكالاتها في الخطاب النقدي العربي المعاصر

Acculturation and its problems in contemporary arab critical discourse

د. عبد القادر طالب
قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة أمحمد بوقره- بومرداس(الجزائر)
amineboutaleb87@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2018/04/21 تاريخ المراجعة:2018/04/23 تاريخ النشر: 2018/06/10

- الملخص:

يتناول هذا المقال واقع المثاقفة بالخطاب النقدي العربي المعاصر؛ بالتطرق إلى أهم إشكالاتها المطروحة بفضاء الممارسة النقدية العربية المعاصرة، مثيرا بذلك عدة تساؤلات تحاول محاوره الإجابة عنها أو إضاءة لبعض جوانبها، منها: ما المقصود بالمثاقفة؟ ما شروطها؟ كيف تلقّى العرب النظريات والمناهج النقدية الغربية؟ ما الذي أفاده النقد العربي بمثاقفته للنقد الغربي؟ هل خضعت هذه المثاقفة لوعي مُمَنهَجٍ ولرؤية علمية أساسها المساءلة والتمحيص أم كانت مثاقفة تقليدٍ وتبعية؟ هل حافظت هذه المثاقفة على ثوابت الثقافة العربية وخصوصية فكرها النقدي، أم أن شدة الانبهار ومفعول الصدمة، أسقط النقد العربي بين أحضان الوافد الغربي؟ ما هي أهم الإشكاليات التي أفرزتها المثاقفة بالنقد العربي المعاصر وما فتئت تشكل عائقا أمام تحقيق تثاقف نقدي إيجابي وفاعلٍ؟ وهل هناك سبيل لتجاوزها أو التخفيف من حدّتها...؟

- **الكلمات المفتاحية:** إشكالات المثاقفة – النقد العربي – النقد الغربي - المعاصر

Abstract:

This article deals with the reality of acculturation and its problems in contemporary Arab criticism, thus raising several questions that the interlocutor tries to answer or clarify in certain aspects, namely: what does acculturation mean? And what are their conditions? How did the Arabs receive Western critical theories? Was acculturation subject to critical awareness and a scientific view based on responsibility and scrutiny, or was it simply subordination? What are the most important problems of acculturation in contemporary Arab criticism? Is there a way to overcome or mitigate it?

key words: The problems of acculturation - Arab criticism - Western criticism - Contemporary

- توطئة:

إن النقد إبداع ملازم للإبداع الأدبي ملازمة الرجل لظلّه، ورافد رئيس له؛ أسمى غاياته- بتعدد مشاربه وتباين اتجاهاته- السمو بالأدب ورقيّه، شكلا ومحتوى، فنيا وفكريا؛ فهو الوحيد المخوّل باستكناه مقاصد النص وسبر أغواره وباستيفاء مستوياته تفسيرا وتأويلا، ومما بات مسلما به؛ أنّ كل قراءة نقدية مسائلة للنصّ مبدعة له، لابد أن تستند إلى منهجٍ بمثابة سراج ينير طريق الناقد وهو يلج غياهب النصّ ويقتفي أثر تعرّجاته، وإذا كان من المعلوم أنّ النقاد العرب القدامى منذ بدأ اهتمامهم بالنقد التأليفي ابتداء من النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، قد نهجوا بالنقد منهجا علميا تصنيفيا وتاريخيا تمثّل في جمعهم للأشعار، وتصنيف أصحابها طبقاتٍ، بذكر جوانب من حياتهم الأدبية وما قيل في أشعارهم من آراء وأقوال نقدية للعلماء والرواة - كما فعل حمّاد الراوية ثمّ ابن سلام الجمحي(ق03هـ) ثمّ بابن طباطبا والآمدي (ق04هـ) وغيرهم-... فإنّه مع توالي القرون وتعاقب السنين، مرّ الفكر العربي بتطورات ومتغيرات عديدة؛ كان

أكثرها تأثيرا في بنيته الثقافية، ما لحقه فترة اتصاله بالحضارة الغربية التي حددت بدايتها زمنيا بدخول الحملة الفرنسية إلى الشرق العربي(1798م)، حيث أحدث ذلك انعطافا كبيرا في مسار الثقافة العربية؛ فبعد أن رزح العالم العربي ردحا من الزمن تحت انطوائية وعزلة شبه تامة، شهد بداية هذه الفترة بشائر نهضة طالت بموجها ميادين الثقافة العربية تحولاتٌ جديدة، ووفقا لمبدأ المثاقفة كان الأدب العربي أبرز ميدان للانفتاح على الآخر الغربي، فما كاد القرن التاسع عشر أن ينتهي، ويلج العالم العربي أعتاب القرن العشرين، حتى كانت فئة كبيرة من الأدباء والنقاد العرب قد أفادوا من الفكر الغربي وأدبه، وانفتحوا على عديد مناهجه ونظرياته النقدية (اطلاعا وترجمة)، وباشروا الاستعانة بإجراءاتها وآلياتها المتعددة في مقاربة نصوص الأدب العربي، بشكل طرح وما فتئ يطرح عدة تساؤلات ويثير استفهامات كثيرة حول هذه المثاقفة وآفاقها، بل هناك جدل واسع بين المفكرين والنقاد العرب حول أهمية هذه المثاقفة النقدية من عدمها؛ فهناك من يؤيدها ويؤمن بها حد الاعتقاد، وهناك من ينبذها ويرفضها ويحذر من خلفياتها وتأثيراتها...

* *في معنى المثاقفة وشروطها:*

تتعدد وتتنوّع مفاهيم المثاقفة"*Acculturation*" بين الدارسين لها والباحثين في مجالها، فقد عرفتها مدونة (**لينتون وهيرسكوفيتش**)"*Linton et Herskovits*" سنة (1936)، بأنها"مجموع الظواهر الناتجة عن الاتصال المباشر والمستمر بين مجموعة أفراد أو ثقافات مختلفة، مع ما يترتب عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية لهذه المجموعة أو تلك" وقد حمل مفهومها بمعجم (**كازمرسكي**)"*kazimirski*""معنى الصراع الذي لا تتساوى أطرافه"، ويعرفها الباحث الفرنسي(**ميشيل دوكوستر**) بأنها"مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثّل وغير ذلك، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات؛ مما يعني أن التركيبية الثقافية و المفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية" وإذا كان مصطلح المثاقفة هو الأكثر تداولا بين حقول المعرفة، إذ يُردّ تاريخ ظهوره إلى سنة(1880) مع الأنثروبولوجيين الأمريكيين تحديدا، فإنّها قد التصقت مفاهيمُها بمصطلحاتٍ أخرى مثل:(التداخل الثقافي) الذي تداول الإنجليز استعمالَهُ، أو(تداخل الحضارات) لدى الفرنسيين، أو(التحوّل الثقافي) كما شاع عند الأسبان...[1]

إنّ المثاقفة عموما؛ ضرورة إنسانية وحتمية حضارية لا مفرّ منها، هي تواصل و تلاقح بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر يكرسه التعاطي مع جديد العلوم والاستفادة من المنجزات المعرفية الحاصلة واستشراف آفاقها؛ وكل انفتاح فاعل و تثاقف راشد هو بلا شك سمو بالذات ذهنيا ونضج لها فكريا، وتطوير لآلياتها المعرفية والمفهومية وتعميق لطموحاتها الثقافية،"فلا غضاضة على بلد يستعين في ميادين العلم والأدب والفن بخبرات بلاد أخرى ليتحقق ما يصبو إليه من تقدم مادامت الحضارات الحديثة ثمرة جهود الجميع، ومن ثمّ ملكا للجميع، ولكن الغضاضة في أن يظلّ تابعا فكريا وثقافيا لثقافات أجنبية"[2]، بمعنى آخر لا يجب أن يفهم فعل المثاقفة بضياع الحدود الكلّية بين الذاتين المتثاقفتين؛ فتتماهى إحداهما في ثقافة الأخرى إلى حدّ

الذوبان والتلبّس، وإنّما يظلّ كلاهما منتميا لثوابته المعرفية وخصائص ثقافته، رغم الاقتراض المنهجي من الأخرى ولاستيفاء هذه الشروط، وتحقيق مثاقفة هادفة سؤالا ومحتوى، لابد من توفّر عاملين أساسيين هما:

- امتلاك وعي علمي يؤطّر عملية الانفتاح والتفاعل مع الآخر، بالتأسيس لمنهج يرتكز على البحث والنظر والتقصي في نقل أو ترجمة معطيات ومفاهيم ثقافة الآخر، وكل ما تتضمنه منجزاته المعرفية، لمعرفة عميقة بالمنشأ التاريخي لمعطيات هذه الثقافة، و تحرٍ دقيق في سياقاتها؛ إذ"لكل ثقافة منطقها المتحكم بها وأن انتقال المعارف من نظام ثقافي إلى الآخر بدون استيعاب الظرفية التاريخية والابستمولوجية التي أنتجت هذه المعارف يفضي إلى انفصام بين الفكر وسياقه الواقعي..فلكلّ ثقافة حقلها المعرفي الخاص يتعلق بمدلول المفاهيم مهما كانت أسبابها"[3] وعلل وجودها.
- استكناه مقاصد وخلفيات مختلف معطيات الثقافات الإنسانية ومعارفها، وعدم الانبهار ببريق عناوينها أو التناول السطحي لمقولاتها، حتى يتبيّن غثّها من سمينها و طالحها من صالحها، وذلك لتمييز حدود الإفادة من خبراتها ومعارفها وتحصين كيان الأمّة المستقبلة ثقافيا من التبعية أو الذوبان والفناء فيها، وإذا كان الهدف من هذا العامل (مطلع النهضة الحديثة) مطلبا فحسب، فإنّه قد أضحى شرطا أساسيا في حاضرنا، لا يجب التقصير فيه أبدا، وهذا ما نستشفه من قولين للأديب والناقد (عباس محمود العقاد) في حديث له عن استقبال الأمة العربية لمذاهب الفكر الغربي، أكّد في الأوّل أنّه:"من الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع منها في أوربة مذهب جديد، ولكن من الشرّ أن تدرس بعناوينها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود"، وزاد تأكيدا في الثاني أنه: "قد تبيّن أنّ الهوية الواقية كانت ألزم للعالم العربي في هذا الدور(النصف الثاني من القرن العشرين) مما كانت في جميع الأدوار الماضية منذ ابتداء النهضة في العصر الحديث، فإنّ الدعوات العالمية خليقة أن تجور على كيان القومية، وأن تؤول بها إلى فناء كفناء المغلوب في الغالب"[4]، وهذا ما لا تحمد عواقبه.

* *المثاقفة وتحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر:*

بادئ ذي بدء لابد من الإشارة أن حديثنا عن المثاقفة في خطاب النقد العربي المعاصر لا يجب أن يفهم بأنّ انفتاح العرب على الآخر و مثاقفته، يحدد بعصر النهضة الحديثة؛ فترة اتصال العرب بالحضارة الغربية فحسب، وإنما للمثاقفة عند العرب محطاتٌ قد سبقت هذه المرحلة التاريخية، فليس بخاف أن العرب قد انفتحوا قديما على أمم عظيمة (الفرس والروم واليونان) وأفادوا من إبداعاتهم ومنجزاتهم في بناء معارفهم وتطويرها وتثبيت مرتكزاتها، وقد لا يكون من نافلة القول؛ أن نشير في مجال انفتاح النقد العربي على إبداع الآخر نموذج (قدامة بن جعفر) في القرن (04هـ) في كتابه (نقد الشعر)، الذي تضمّن أصداءَ تأثرٍ بمنطق الفيلسوف اليوناني (أرسطو) في كتابه (فن الشعر) وهناك من يُلحق كتابه (الخطابة) أيضا، بشكل أسهم في توجيه التفكير النقدي وجهة نظرية تأملية، حاولت فهم طبيعة الظاهرة الشعرية ودوافع الإبداع وحدوده...[5].

أمّا التطرق إلى المثاقفة في نقدنا العربي المعاصر، وذلك ما يعنينا في هذه الورقة البحثية، فإنّ الحديث عنها ذو شجون، فهي ميدان خصب للمناقشة والإثراء؛ الجانب المثير فيها ليس في إثبات تجلياتها بالنقد العربي المعاصر من عدمها، فقيامها أمر مثبت لا غبار عليه وليس ذلك بمسألة خلاف بين اثنين، وإنّما الجانب الهام الداعي إلى الوقوف عندها، يكمن في واقعها بالنقد العربي ثمّ المأمول منها، بمعنى آخر، تبيان ما للنقد العربي المعاصر من هذه المثاقفة وما عليه، ما هو كائن وما يجب أن يكون أمام هذا الانفتاح و التلاقح المعرفي القائم بين أمّتين متباينتين فكريا وثقافيا، وتحديدا؛ لابد من التطرق لأهمّ الإشكاليات التي أفرزتها هذه المثاقفة بفضاء الممارسة النقدية العربية المعاصرة، التي احتدم النقاش حولها ولا يزال قائما، وهل هذه الإشكاليات تكمن بواعثها في طبيعة الذهنية العربية وفي رؤيتها المتوجسة دوما من ثقافة الآخر؟ أم أنها تردّ إلى ضبابية منطلقات الفكر النقدي الغربي؛ بما يتضمنه من مفاهيم ومصطلحات تكرسها خصوصيته الثقافية والبيئة الاجتماعية التي نشأ ضمنها والتي تغاير لا محالة بيئة التفكير النقدي العربي ثقافيا واجتماعيا...؟

إن مقاربة واقع النقد العربي المعاصر، وإعطاء صورة دقيقة عن مثاقفته للنقد الأدبي الغربي، وما تثيره من تحولات و إشكاليات من داخله، ليس بالأمر المتيسّر لكلّ من أراد الخوض في هذه المسألة، والتعمّق فيها؛ فالإقبال على أمر كهذا، يعني معاينة تجربة الناقد العربي بكاملها، وهذه المعاينة-على حدّ قول الناقد (محمد صابر عبيد)-"تحتاج إلى دقّة علمية عالية وحذر شديد، ومن أجل أن يعي المعاين طبيعة اللبس والارتباك والفوضى التي دخلت التجربة النقدية العربية في خضمّها إثر المدّ المنهجي الذي اجتاح العقل النقدي العربي، فإنّ عليه أن يترصد حدود التجربة في مدى استقلاليتها من جهة، وفي المدى الذي ذهبت إليه باتجاه آخر من جهة أخرى، والكيفية التي انعكس فيها هذا وذاك على جوهر النص النقدي بوصفه الممثل لصوت الناقد"[6] الحديث أو المعاصر.

لقد اقترنت ظاهرة الإبداع الأدبي الحديث والمعاصر،-"بوصفها واحدة من أخصب الظواهر، وأكثرها قدرة على إثارة احتمالات التفسير والتأويل، في كيفية تكوّنها وفي عناصرها الأساسية، في ما تنطوي عليه من دلالة وما تؤدّيه من وظائف، وما يتعلق بقضايا التأثر والتأثير..."[7]- بفعاليات نقدية موازية لها، ارتكزت على سلسلة مناهجَ معبّرةٍ عنها، كانت سبيلها إلى الاقتراب من عالم هذه الظاهرة الأدبية وبمثابة مفاتيح تسهل عملية استقرائها وسبر أغوارها واستيفاء جلّ مستوياتها ومقاصدها، وتختلف هذه المناهج وتتباين طرق تعاملها مع النصّ الأدبي وفقا للمرجعيات المعرفية التي انبثقت عنها وأسست لمقولاتها؛ فلسفية كانت أو ألسنية، ذلك"أنّ علم تاريخ هذه المناهج النقدية هو علم الأشكال التاريخية التي تنتج هذه المناهج- المناهج التي تُنْتِجُ بالمقابل النصّ الأدبي بوصفه موضوعها، بوصفه ((نصا للنقد))"[8].

وإذا كان النقد الأدبي عند العرب ليس بمثل بعض الأنواع الأدبية الجديدة التي عرفوها حصريا فترة اتصالهم بالغرب بداية العصر الحديث،"غير أن الجمود الذي أصاب الحضارة العربية الإسلامية خلال القرون التي حكمتها الخلافة العثمانية، أصاب النقد الأدبي مثلما أصاب بقية المجالات، وبالتالي فإن ما نسميه اليوم بالنقد الأدبي[الحديث والمعاصر] هو شيء لا صلة له بذلك النقد القديم، وإن بقي له أثر مع

بعض نقادنا المحدثين ولذا؛ فالنقد العربي الحديث والمعاصر، هو النقد الذي اتصل بالثقافة الأوربية وأخذ عنها، فأثرت في بنيته الأساسية وتياراته أو اتجاهاته، ويبدأ هذا النقد أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين"[9]؛ وهي فترة شهد فيها النقد العربي حراكا واسعا ومسته طفرات كبيرة على مستوى إجراءاته وآلياته المقارباتية.

لقد خاضت مناهج النقد المعاصر التي نشأت وانتعشت في الغرب، مسيرة طويلة أسست لاتجاهين رئيسين هما: **اتجاه سياقي ثمّ اتجاه نسقي**؛ اهتم الاتجاه الأوّل منها بمقاربة النصّ الأدبي وتفسيره وفق سياقات خارجية سواء كانت هذه السياقات تاريخية أو نفسية أو اجتماعية أو أسطورية، بينما اهتم الاتجاه الثاني بداخل النص الأدبي"على أنّه دائرة مغلقة ينمو ويتشكّل وفق قوانينه وشروطه الخاصّة به"[10] متبنيا مقولة ((مقاربة النصّ الأدبي بذاته ولذاته)) كالمنهج البنيوي مثلا، وبالتالي فظهور الاتجاه الثاني كان ردّة فعل على ما وقعت فيه مقاربات الاتجاه الأوّل من انسداد، لمّا أهملت بنية النص الأدبي أو نسقه كلّيا، و بالغت في تحليله وتفسيره من منطلق أنه وليد للسياقات السابقة أو أنّه صورة عاكسة لها على نحو ما، وإن زلّت المقاربات النقدية للاتجاه الثاني هي الأخرى أيضا بغلوّها في تسييج النصّ وعزله عن محيطه، مما اضطر الخطاب النقدي المعاصر إلى السعي جديا للخروج من مأزق هذه المقاربات النقدية؛ فكان التأسيس لمقولة أخرى تتبنى ((الداخل الخارج)) بـ"جعل الخطاب الأدبي هو الوثيقة الأساس التي تسعى المقاربة النقدية لقراءتها عبر تلمس دلالاتها العلاماتية من خلال المستويات الأساسية التي يؤسس عليها الخطاب الأدبي"[11](كالأسلوبية، والسيميائية...)، و قد أفرزت هذه المقاربات بدورها تيارات نقدية أخرى نادت بأهمية القارئ وإبراز دوره كمتلق للنص والعمل على استعادة مكانته المفقودة بفضاء الممارسة النقدية المعاصرة، بعدّه ثالث قطب للعملية النقدية التي بدأت بالمؤلف ثم انتقلت إلى النصّ، وقد يتعذّر تحديد مدرسة بعينها توحد اهتمام أعلام هذا التوجه النقدي، كونه استفاد"من الطروحات الحديثة سواء اللغوية منها أو النفسية أو الحفرية أو البنيوية أو التقويض أو مكتشفات النقد النسائي...والأسماء التي ارتبطت بهذا النوع من النقد هي في الأصل الأسماء الألمانية خاصة التي قامت على مقولات الناقد الهولندي رومان انغاردن: أمثال (فولفغانغ آيزر وهانز روبرت ياوس) أما على الجانب الأمريكي فهناك(نورمان هولاند وجيرالد برنس)..."[12]

ولا غرو أن تحولات هذه الاتجاهات النقدية ذات الأصول الغربية، قد طالت حمى النقد العربي ولامسَهُ وهجُهَا، حيث أفاد من معطياتها ومفاهيمها، واقترض من آلياتها وإجراءاتها في مقاربة النص الأدبي العربي، وقد مر هذا التفاعل و التثاقف النقدي العربي مع صنوه الغربي بمرحلتين أساسيتين هما:

- مرحلة التأسيس إلى مثاقفة نقدية (الانبهار):

لاشك أن أيّ تفاعل فكري، معرفي عرفته الأمم، لم يحظ في بداياته إلاّ بتواصل فردي، ثمّ سرعان ما تحوّل إلى تفاعل جماعي، قد يكون باعثه الأول هو مفعول صدمة الذات وانبهارها بمنجزات الآخر، وقد يردّ ذلك إلى تعلّق الذات المقهورة بمواصفات الغالب (جدلية الغالب والمغلوب) وتأثرها بما يجيده من فنون وعلوم، فتسعى بدورها إلى مسايرته بتعلمها وإجادتها ونقل سائر أسباب نهضته، وهذا ما نعتقد-المتفق عليه-

حول بدايات تفاعل العرب مع الثقافة الغربية، إذ تزامن ذلك مع فترة ركود وتقهقر عربي طال كلّ الأصعدة مما أشعرهم بالدّونية والنقص، مقابل تفوق الغرب واستعلائه في تصدير علومه ومنجزاته المعرفية.

يؤكد صاحبا دليل الناقد الأدبي؛ أنه بعد حوالي مائة عام من إرسال مصر لرفاعة الطهطاوي ورفاقه وهم أوّل مبعوثيها لتلقي ثقافة أوربية عامة، قد ابتعث الطالب (أحمد ضيف) كمتخصص في الدراسات الأدبية (1912م)، فكان أول عربي قد أفاد من الفكر النقدي الأوربي ممثلا بالمدرسة اللانسونية الفرنسية، ومن المؤسسين الأوائل للتفاعل بين النقدين العربي والغربي، فبعد أن عاد حاملا للدكتوراه من السربون، أول ما بشّر به (أحمد ضيف) هو(المنهج التاريخي) الذي تلقاه عن الفرنسي (**جوستاف لانسون**)، داعيا إلى ضرورة الانفتاح على أساليب النقد الأوربي الحديث للتغير من أنماط وأدوات التفكير النقدي العربي، الذي انتقد مفاهيمه ومناهجه الراسخة لدى العرب[13]، وقد تكرر نموذج التأسيس للتفاعل الفردي مع التفكير النقدي الغربي مع أدباء ونقاد وأكاديميين عرب آخرين أمثال: طه حسين، أحمد أمين، أمين الخولي وأحمد الشايب... فطه حسين مثلا أفاد من مثاقفته للنقد الغربي في تأثره بمناهجه التاريخية والاجتماعية، محتذيا في ذلك (لانسون،سانت بيف وهيبوليت تين) ويتجلّ ذلك بمؤلفيه"في ذكرى أبي العلاء المعري"و"في الشعر الجاهلي".

وفي سياق متصل بهذه المرحلة دائما، كان للاتجاه الوجداني (الرومانطيقي) الممثل بمدارسه الثلاث (الديوان، أبولو، الرابطة القلمية) حضوره الفاعل والمؤسس للمثاقفة النقدية بالخطاب النقدي العربي، فقد حاولت هذه المدارس وعلى رأسها مدرسة الديوان- الحاملة لاسم كتابها ذي الجزأين، المؤلّف1920-1921م من طرف (عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري)- إدخال المذهب الرومانطيقي إلى الأدب العربي الحديث، ومن ثمّ إدخال الاتجاه النفسي إلى النقد العربي الحديث، الذي حاول العديد من النقاد العرب الاستعانة بإجراءاته في مقاربة النص الشعري القديم، كما فعل (العقاد والنويهي) في دراستهما لشخصيتي"أبي نواس وابن الرومي"، هذا على غرار بعض المحاولات الفردية التي يعتقد أنها"اتجهت بالنقد النفسي العربي اتجاها جادا، منها محاولة (أمين الخولي) الذي دعا إلى اصطناع علم النفس في دراسة غوامض التجربة الفنية، وفعل ذلك في دراسة (حياة أبي العلاء المعري)، ثم تبعه (محمد خلف الله أحمد) في دراسته (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده)"[14]، وقد كان في طليعة الدراسات الأكاديمية في هذا المجال، دراسة (مصطفى السويف) المعنونة بـ (الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة)...

ما يقال عن هذه المرحلة، أنه رغم منطلقها التأسيسي للمثاقفة النقدية بين العرب والغرب حديثا إلاّ أن الممارسة النقدية فيها قد شابها الاضطراب ووسمت بالازدواجية، حيث تأرجح جلّ نقاد هذه المرحلة بين التطلّع إلى الإفادة من مناهج النقد الغربي الحديثة وبين وفاء مستمر لأساليب النقد العربي القديم وحنين مشدود إلى ذلك النقد الانطباعي الموشّى بأساليب البلاغة العربية، وهذا ما قد نلمسه لدى العقاد وطه حسين وغيرهما؛ فهذا الأخير مثلا كثيرا ما زاوج بين الاثنين أو تاه بينهما، إذ ظلّت قراءاته النقدية" متنوعة منفتحة على الغرب، ولم تقطع صلتها بالتراث... وقد استمد وعيه النقدي والأدبي والعلمي من تأثير قراءاته للأدب الفرنسي وثقافته"[15]، ويتجلى هذا التزاوج على سبيل المثال في دراسته للمتنبي؛"فهو من ناحية مهتم

بشعر المتنبي لاستجلاء ظروف حياة الشاعر وعصره على طريقة سانت بيف وتين، ومن ناحية أخرى حريص على التواصل مع القارئ من خلال أسلوبه الوصفي الانطباعي المبسط"[16]، و إن كان الفكر النقدي لطه حسين لم يغترف في حقيقته من مصدر معرفي واحد أو رؤية نقدية فحسب، وإنما اختمر برؤى فلسفية متعددة؛ منها "تلك الصادرة عن الفلسفة التنويرية بما فيها من عقلانية والفلسفة الوضعية ذات التوجه الحسي التجريبي هذا بالإضافة إلى الرؤية الفلسفية والمنهجية المغايرة، بل المتعارضة مع الأخريين والمتمثلة بالفلسفة الديكارتية"[17]، القائمة على مبدأ الشك.

- مرحلة الانفتاح على المثاقفة النقدية (الاحتذاء والتقليد):

تعكس هذه المرحلة تزايد اهتمام النقاد العرب سواء كانوا أكاديميين أو متخصصين، بالنقد الغربي بشكل منقطع النظير، تأليفا وترجمة للكثير من أعمال النقاد الغربيين كخطوة أولى للتعريف بمناهج هذا النقد ونظرياته، ثمّ لمتابعتها وتسهيل الإفادة منها ثانيا، وقد شمل اهتمام هذه الفترة التي تمتدّ من ستينيات القرن العشرين إلى يومنا هذا، مناهج النقد الجديد خاصّة ونعني بذلك مناهج النقد النسقي أو النصّاني كالبنيوية والأسلوبية و السيميائية...ثمّ مناهج ما بعد الحداثة، وأهم ما يسم هذه المرحلة، ظاهرة (التمذهب أو التمنهج النقدي) لدى النقاد العرب لاسيما فترة التسعينيات؛"فمن يطالع النقد العربي المعاصر سيشعر بأنّ اهتمام بعض نقاده بتحديد مناهجهم في بدء دراساتهم وحرصهم على الدخول في نقاش نظري لتلك المناهج يكاد يفوق ما تطالعنا به كثير من كتب النقد الغربي...[وفي مقابل ذلك] نجد بالطبع قطاعا عريضا من النقاد الذين ينتجون نقدا غير عابئ بالمنهج"[18]، ومن النقاد العرب الذين اشتغلوا على مناهج النقد الجديد، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: جابر عصفور، صلاح فضل، كمال أوديب، يمنى العيد، عبد الفتاح كليطو، سعيد يقطين، محمد مفتاح، حميد لحمداني محمد بنيس، عبد المالك مرتاض، رشيد بن مالك، عبدالله الغذامي...والقائمة تطول.

جماع ما تقدم؛ أيا كانت ميزات هذه المرحلة وتوجهات النقد العربي المعاصر فيها، فإن المثاقفة النقدية العربية للنقد الغربي المعاصر والانفتاح المتزايد عليه، لم يكسب النقد العربي خصوصية الطرح أو استقلالية المنهجية وإنما ظلت الممارسة النقدية العربية المعاصرة تحت تأثير النقد الغربي بمختلف مناهجه وتياراته، ولم تفض فعاليات التأليف والترجمة إلى الإحاطة بمناهج النقد الغربي والإفادة منها، وإنما آلت في نهاية المطاف- حسب سيد البحراوي- إلى"خلل وتضارب في ترجمة المصطلحات، إلى تناقض في فهم الجمل إلى قصور في فهم الخلفية التي تنطلق منها المقولات، والنسق الذي تنتمي إليه الجزئيات والسياق الذي تنبع منه النظريات وتجيب عن أسئلته، سواء كان سياقا ثقافيا أو سياسيا أو اجتماعيا، وكلّ هذا أوقع القارئ العربي الذي لا يجيد الاطلاع على اللغات الأصلية المنقول عنها والذي أخذته الدهشة والانبهار في حالة من الصنمية إزاء المقدم الذي لا يفهمه، وإن كان ماهرا استطاع أن يستل مصطلحا من هنا وآخر من هناك وراح يردده في المنتديات الأدبية، وعلى المقاهي دون وعي أو إدراك للتنافر الممكن وقوعه"[19]، وهذا ما أوقع النقد العربي

المعاصر في أزمة منهج نبعت في الأصل من أزمة نقص معرفي بهذه المناهج، مما أوقع بدوره النص الأدبي العربي الموضوع تحت مجهر هذه المناهج الغريبة عنه بسياقاتها ومقاصدها وخلفياتها في أزمة قراءة، وألحق به تشويها وطمسا لهويته اللغوية والثقافية، ومن ثمّ فأيّ تفكير للخروج من هذه الأزمة مرهون بمدى وعي نقادنا بإشكاليات النقد العربي واستيعاب همومه الحقيقية، ثمّ سدّ ذلك النقص المعرفي المثار حول مناهج النقد الغربي، ومن الهام جدا الوعي بالنص العربي المبدع وإدراك خصوصياته وسياقاته المميزة له عن خصوصيات وسياقات النص المبدع من قبل الآخر، لأجل بلورة منهج نقدي له كيانه الثقافي وتحولاته الفكرية، له مفاهيمه ومقولاته وإجراءاته التي تنتجها نصوصنا الأدبية، لا نصوص الآخر.

- إشكالات المثاقفة بالخطاب النقدي العربي المعاصر:

قد لا نبدو منصفين كما ينبغي، إذا ما تجاهلنا كلّيا الدور الذي قام به النقد الأدبي المعاصر بأصوله الغربية في رقيّ النقد العربي الحديث والمعاصر بتطوير آلياته وإجراءاته القرائية والانعطاف به فكرا وتذوقا في مقاربة النص الأدبي ومن مستويات عدّة، ومنه فقد أحرز النقد العربي بمثاقفتة للنقد الغربي انجازات يتعذر على أيّ مناّ نفيها، بيد أنه من الأمانة أيضا أن نشير في السياق ذاته أن ما مسّ نقدنا العربي من تطوير منهجي وإجرائيّ وما أحرزه من انجازات، قد رافقتها وما فتئت إلى يومنا هذا الكثير من الإشكالات منها ما يستعصى تجاوزه أو تصويبه...

فما هي أهم هذه الإشكالات يا ترى؟ وما تأثيراتها على واقع وآفاق الخطاب النقدي العربي المعاصر؟

- تباين طروحات النقد العربي وجدل تياراته:

لا جدال في أنّ أهم إشكالية أفرزتها ومافتئت تواجهها المثاقفة العربية للثقافة الغربية عامّة و المثاقفة النقدية خاصّة، هو تعدد طروحات العرب مفكرين كانوا أو نقادا وتباين مواقفهم إزاءها، ويبرز على واجهة هذه الإشكالية رأيان، يحتدم الصراع الفكري بينهما بشأن المثاقفة مع الغرب: الرأي الأوّل يمثله أنصار الأصالة الذين ينتصرون لتراث الأمّة العربية ويتوجسون خيفة من ثقافة الآخر؛ من هيمنتها على حساب قيم وثوابت ثقافة الأنا والخشية من استلاب هوية الأمّة، ولم يصدر موقفهم هذا من العدم، وإنّما هو وليد ترسبات إيديولوجية وسوسيولوجية أفرزتها العلاقة التاريخية غير المتكافئة بين العرب والغرب، المتمخضة عن جدلية الغالب والمغلوب، التي كرست على الدوام منطق العداوة والرفض المسبق للآخر، أمّا الرأي الثاني فيمثله المجدون لثقافة الآخر، المُرتَمُون بين أحضانه، والواثقون بصوابية الفكر الغربي ورقيّه على فكر الأنا.

ومن هذا الصراع القائم ردحا من الزمن بين الفئتين تتولد إشكالية المثاقفة النقدية العربية المعاصرة لمناهج الفكر النقدي الغربي، وهي إشكالية لا تجاهلها ولا محاولة الانتصار فيها لطرف على حساب الآخر بالأمر الهيّن أو المفيد؛ فالأجدر تصويب المسألة، بإبراز موطن الصواب من الخطأ في رأيي الاتجاهين لإحلال مفهوم التثاقف الحضاري ونبذ التصارع الأيديولوجي، فما يصدر عن الفئة الأولى من حذر وتوجس هو شيء طبيعي؛

فيقظة مفكري الأمّة ومثقفيها من الثقافات الأمم الوافدة عليهم والمتفاعل معها، مسؤولية يضطلع بها هؤلاء لوجوبها عليهم عمّا سواهم من أفراد الأمّة، وليست هذه الصفة بحكر على الأمّة العربية وإنما هي أمر قائم بين سائر الأمم والشعوب، لكن ما يخالف الصواب، ويُخْلِل الخطأ أن يتحوّل هذا التوجس والخشية إلى هذيان يلازم أعلام الأمّة تحت مبرر(الغزو الثقافي)، فيصل الأمر إلى حدّ المبالغة والغلوّ في نبذ الآخر والعزوف المطلق عن مشاركته الفاعلة والايجابية في تبادل المعارف والعلوم، وفي ذلك تعطيل للتواصل الثقافي بين شعوب الأرض وأممها، وبهذا يتأسس الانغلاق ويبنى صرح القطيعة السلبية التي قد تنتقل عدواها إلى الأجيال المتعاقبة فتتوارثها، وهذا ما لا يُجَوّزُه منطقٌ ولا يقبله ذو عقل مفكرٍ واعٍ، يميّز بين ما ينفعه وما يضرّه، ولا تقرّه قبل ذلك شريعة الله سبحانه وتعالى، أصدق القائلين في محكم تنزيله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات الآية:(13))

فليعلم هؤلاء أنّ تحصين الأمة ثقافيا أو حفظ أمنها الثقافي، لا يتأتّى أبدا بإقرار القطيعة مع الآخر والانكفاء على الذات،- فذلك يولج الأمّة في رتابة سكونية تؤول إلى ركود يشلّ حركتها ويغيّبها عن ركب منجزات الحضارة الحديثة -،وإنّما يتأتّى بحضور "الذات الحضارية"– كما يقول محمد محفوظ – وتأكيد فعاليتها موازاة مع حضور الذات الأخرى، ليس بطريقة الاستلاب والتبعية، وإنّما "عن طريق إعادة تنظيم الحياة العقلية والمادية والأخلاقية للمجتمع، على ضوء ثوابت الحضارة والتاريخ"[20] وبحضور الوعي الهادف دائما كشرط أساسي؛ فتوفّر الوعي و"بنوده ومفرداته في حياة الإنسان هو المهاد الفكري الضروري للانعتاق والتحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية وتحدّيات العولمة والانطلاق من آفاق نوعية إلى الأمام"[21]، تنهض بالثقافة العربية وتصلها بعجلة التطور الحضاري، بطريقة ندّية فاعلة، تعلي من شأنها و تعيد مجدها المفقود من زمن غابر.

ما قلناه بشأن موقف الفئة الأولى إزاء المثاقفة العربية للفكر الغربي، نقول ما يقابله بشأن موقف الفئة الثانية؛ بأنّ الارتماء بين أحضان الآخر والاعتقاد بكل وافد منه تسليما مطلقا، دون قراءة وتمحيص ومساءلة، له أثر خطير بل أخطر من أثر موقف الفئة الأولى على الأمّة وهويّتها الثقافية؛ فليس كل ما يكرّس الغرب تصديره لنا يُحمل بمحمل النوايا الحسنة، والقصد البريء، الذي لا خلفيات من ورائه ولا مآرب له، فقد يدسّ بالعسل قليل من السمّ إن لم يكن كثيره، ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا أن زعامة العالم والحرص على شمولية نمطية تفكير واحدة، وعولمة الثقافات وفقا لمرجعيات أيديولوجية معيّنة، كلّها أهداف وغايات لم يتوان الغرب لحظة للظفر بها، بل يعتقد أنه من المسلمات الأساسية للنظام الدولي الجديد، التي يشتغل على تحقيقها منذ قيامه، هي"المزيد من التمركز الذاتي الغربي، وعدم التسليم بتعدد الحضارات ومواقعها، وهو نظام لا يقتصر على القضايا السياسية فقط، وإنّما يشمل جميع القضايا والجوانب"[22] الجوهرية في مختلف الثقافات الإنسانية و الأدب و النقد جانبان جوهريان أساسيان في جغرافية هذه الثقافات لدى كلّ أمّة.

وتأسيسا على هذا، لابد من مراجعة طبيعة علاقتنا مع الآخر، بل من الواجب علينا "أن نقوم بمراجعة فكرية – ثقافية نعود من خلالها إلى أصولنا ومفاهيمنا الأصيلة كخطوة أولى في سبيل إعادة تأسيس لمفاهيمنا ومقولاتنا الفكرية والثقافية، لكي نشارك بفكر فاعل وثقافة ناهضة في تطورات العالم"[23]، بعيدا عن دائرة الصراعات الأيديولوجية، القاتلة لروح الإبداع بذواتنا، والمعيقة لحركية الرقّي العلمي لأمتنا، وليكن في علم مفكرينا ونقادنا المنادين بتغريب نقدنا العربي والمغالين في الاعتقاد بالفكر الغربي ومناهجه،- على أنه مصدر كلّ جديد صائب-أنّ "متابعة الجديد في ميدان البحث والاستفادة منه هي ضرورة لازمة لاشك، غير أنه من الضروري أيضا أن تؤكد أن متابعة الجديد في ذاتها لا تصنع عالما...هذا معناه أنه لابد للباحث أو العالم أن يكون قد امتلك منهجا في البحث أصلا حتى يستطيع تنميته"[24]، أمّا إذا ظلّ تابعا للآخر منهجا وتفكيرا، فلا يعوّل على أدائه البحثي وتتعطّل معه الإنتاجية العلمية، وكما هو المعلوم أنّ "العقل التابع؛ أي العاجز عن الإبداع، هو عقل لا يستطيع التعامل مع الأفكار والآراء تعاملا حرا مبدعا"[25] وهو ما ينطبق على فئة كبيرة من نقادنا الذين يتبجحون بترديد مفاهيم ومقولات الفكر الغربي ومناهجه دون دراية علمية دقيقة أو معرفة عميقة بمرجعياتها.

- إشكالية المصطلح النقدي:

تعدّ أزمة المصطلح النقدي في النقد العربي المعاصر من أكبر الإشكاليات التي أفرزها فعل المثاقفة النقدية العربية لمناهج النقد الغربي؛ مسألة باتت اليوم تؤرّق النقاد العرب والقائمين على هذا الميدان، مقابل ما تثيره من قلق وإزعاج كبيرين للمتلقي العربي، الذي أضحى فهمه مضطربا ومفاهيمه ملتبسة، كلّما أقبل على قراءة نتاجات النقاد العرب المعاصرين، في مجالي التأليف أو الترجمة للآخر الغربي.

إنّ المصطلح النقدي قوام العملية النقدية، وعمادها، بل إن أيّ قراءة نقدية "لا تؤتي ثمارها ما لم تكن لغة التعبير عنها ترتكز على شبه مسلمات أو حدود قصد وتعبير عليها هي المصطلحات؛ و بالنتيجة فليس هناك من علم إلاّ وله مصطلحاته، وليس هناك من مبدع كبير في النقد الأدبي وغيره من المعارف والعلوم إلاّ و يتميّز بمعجم اصطلاحي يوشك أن ينفرد به جزئيا في القراءة والوضع والاصطلاح...، ومن ثمة فالمصطلح تاريخ العلم. وهو في النظرة الشمولية علم، ومن جهة الابتكار بين يدي القراءة الواعية هو فن، وإنّ أكثر عناصر العلوم تداولا بين لغات الأمم والشعوب هي مصطلحات العلوم؛ هي سفارات العقول بين الحضارات، وسفراء الألسنة بين اللغات، ذلك أنّ متحدثا في أي علم إذا لم يصدر في كلامه عن لغة المصطلح في الحقل المعرفي أو العلمي الذي يصدر عنه، فإنّ كلامه سيقع في دائرة الغياب وضعف الفهم."[26]

وتأسيسا على هذا؛ فإنّ الإشكالية المصطلحية بنقدنا العربي المعاصر، باعثها الرئيس هو اجترار الناقد العربي لمصطلحات النقد الغربي وتداولها- من قبيل الانبهار- بخطابه النقدي وفي مقارباته للنصّ العربي،"فكلما اخترع الغرب مصطلحاً ما؛ أو منهجاً طفقنا ننتصر له ونحن نمارس تبعيتنا بلذة مغرية...وشرعنا نعيب على نقادنا القدامى تقصيرهم عما وصلت إليه حركة النقد الحديثة...بل كلما ظهرت في الغرب مفاهيم جديدة أقلع نقادنا المحدثون عن السابقة، وألغوا ما قاموا به"[27]، وتبنوا الجديدة، دون

أدنى مساءلة لها أو بحث في مرجعياتها الفلسفية أو محاولة تقصٍّ في أصولها المعرفية، ودون أن يجتهدوا في إعادة بلورة أو ابتكار مصطلحات توازيها وتستمد خصوصيتها من مرجعيات النقد والنصّ الأدبيين العربيين، مما تمخّض في نهاية المطاف عن أزمة مصطلحية بالممارسة النقدية العربية المعاصرة، أحدثت بين المتلقي العربي وخطابه النقدي فجوات قرائية وقطيعة ابستمولوجية دائمةُ. لا يعلم أجل نهايتها.

وفي ظلّ هذا الواقع السديمي الذي يمرّ به نقدنا العربي"فإن البحث عن زمانية أو مكانية تكوين حركة النقد الحديث [والمعاصر] عند النقاد العرب يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ ليس باعتبار التوزع الجغرافي أو التفاوت الثقافي فقط، وإنما باعتبار أن أكثرهم لا يزال يتمسح بذيول الثقافة الغربية ومذاهبها الأدبية واللغوية والأسلوبية والنقدية"[28]، على حدّ تعبير الناقد حسين علي جمعة؛ وللأسف إنّ معضلة المصطلح بالنقد الأدبي العربي المعاصر، التي مبدؤها عدم إحاطة أعلامه بحيثيات المصطلح النقدي الأجنبي المنقول إلينا ترجمة والمعرفة الدقيقة بمرجعياته، فضلا عن تجاهل جلّهم لمعطيات الموروث النقدي والبلاغي العربيين بهذا الشأن، أحدث تعددا بمصطلحاتهم النقدية وتباينا بمسمياتها و مفهوماتها فيما بينهم، وإن تعلّق الأمر بمصطلح واحد، مما أفرز بدوره ضبابية كبيرة على مستوى تنظيراتهم النقدية ومقارباتهم النصّية، وخير دليل ما هو واقع من اختلافات مصطلحية بين نقاد المغرب العربي ومشرقه، تردّ أسبابها دائما إلى اللغة المترجم عنها؛ الوعاء الحامل لثقافة الآخر ومنها مناهج النقد الأدبي؛ فإذا كان المغرب العربي منفتحا على اللغة الفرنسية، فإن المشرق العربي منفتح على اللغة الانجليزية، والأمثلة عن هذه الظاهرة ثريّة، لا يسعنا المقام هنا، التَطرّقَ إليها.

إنّ ما يُعاب على نقدنا العربي المعاصر، وفعل مثاقفته لمناهج النقد الغربي– نقولها ونعيدها مرارا وتكرارا- يكمن في غياب وعي التفاعل والافتقاد للمحاورة البنّاءة، الهادفة إلى الابتكار والإضافة بعد تحصيل المفيد من الآخر، ولو اقتفى النقد العربي المعاصر أثر سلفه (النقد العربي القديم)؛ بداية القرن الرابع الهجري، لكان الأمر هيّنا؛ إذ انفتح النقاد العرب القدامى على الآخر، و ثاقفوا هم أيضا فكره النقدي، بيد أنهم سلكوا نهجا أكسب الثقافة العربية، ومنها النقد العربي"قوة الحضور الواقعي والمادي؛ فما كان من تأثر بالثقافات الأجنبية الأخرى، فقد تحقق في إطار من الرغبة في الاستزادة، وتحقيق شمول المعرفة وسعتها، لا بدافع من تشخيص ذاتي يظهر العجز والقصور وانحسار الإمكانات عن مجاراة حركية التطور، مثلما يحصل اليوم من مثاقفة اضطرارية أو جبرية اندفع إليها العقل العربي؛ بدافع جوهري من الشعور بالعجز وغياب القدرة على تقديم الإجابات الحقيقية عن أسئلة الظاهرة الأدبية"[29] وما يثيره النص من إشكاليات حول المقاربات المتعسّفة التي ارتهنت إلى نظريات ومناهج الآخر، وغمطت حقه في اختيار وإنتاج المنهج والإجراء اللذين يوافقان نسقه اللغوي ويتناغمان مع سياقاته المعرفية.

- قصور الرؤية وغياب المنهج:

إنّ إشكالية المصطلح بالنقد العربي المعاصر، تحيلنا على معضلة كبيرة، هي مكمن قصور نقدنا وعدم فعاليته أو نجاعته؛ هي غياب منهج نقديّ محدد واضح المعالم لدى نقادنا المعاصرين في مقارباتهم النصّية؛ وربطنا أزمة المنهج بأزمة المصطلح؛ لأنهما– نقصد المصطلح والمنهج-"صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي وتذهب ريحه ويفشل في القيام بوظيفته"[30]، فإذا كان المنهج مولّدا للمصطلح، محددا لإجرائيته؛ فإنّ تحقق فاعلية المنهج مرهونة بفاعلية المصطلح ونجاعته أثناء المقاربة النقدية للنصّ الأدبي، والمنهج النقدي في أبسط تعريف له، هو "رؤيا تتوخى الوصول إلى أسرار النصّ ومقاصده وأداة بحث منهجية تقرّب تحقيق هذه الغاية..[أو هو] فكرة تحمل رؤية جزئية أو كلية إلى الكون بهدف تفسير ما يحتويه من موجودات وظواهر والوقوف على العلاقات التي تربط بينها، وتحيل على القضايا المطروحة بطريقة تستند إلى نظريات وأدوات تسهّل الوصول إلى مقاصد المبدع والإبداع، من منظور أن الناصّ مدّع والنصّ أطروحة تحتاج إلى تحقيق"[31] وفي سياق التأكيد على أهميته وضرورة تسلّح الباحث به قبل ولوج أيّ عملية بحث أو مقاربة نصّية، جاء في قول منسوب للفيلسوف(ديكارت):"لئن تترك البحث خير لك من أن تلجه من غير منهج"[32]، ومتى كان المنهج غائبا أو قاصر الفعالية بالممارسة النقدية، فإنّ هناك بالضرورة غياب أو قصور في الرؤية المسوّغة لهذا المنهج، ولذلك– حسب ما يؤكّد الناقد عبدالله إبراهيم-"لقد أثارت قضية الرؤية والمنهج اهتمام نقاد الأدب ودارسيه، ويمكن بصورة عامّة، التأكيد دون تردد، أن الجانب الخصب في العملية النقدية، بدءاً من أرسطو وهوراس، مرورا بالجرجاني، وصولا إلى لوكاش وتودوروف ونور ثروب فراي،-على سبيل المثال وليس الحصر- إنما نهض فضلا عن توافر عوامل أخرى، على اقتران الرؤية الدقيقة والشاملة للعملية الأدبية بالمنهج المعبّر عنها. فبدونهما تفقد أيّ مقاربة جدواها، لا في غايتها فحسب، بل في سبل الوصول إلى تلك الغاية، وتصبح المقاربة ضربا من التضليل والخداع، لا الكشف والاستنباط والتأويل، وتفقد المقاربة النقدية خاصيتها الأساسية كونها حوارا منهجيا مع النصّ لاستقراء ثوابته ومتغيراته، وسبر عوالمه، وتعويم مدلولاته وتتحول إلى مرافعة قانونية تكيل اتهاما، أو تدرأه مما لا يمكن أن يفيد الخطاب الإبداعي، ولا العملية النقدية"[33]

وعلى ضوء الحديث عن أهمية الرؤية والمنهج وفعاليتهما بالممارسة النقدية، فإنّ قصورهما أو غيابهما بالنقد العربي المعاصر، مردّه افتقاد الناقد العربي المعاصر إلى رؤية منهجية واضحة المعالم و الإجراءات، كفيلة بمقاربة خصبة وعميقة لخطابه الأدبي، تستوفي مستوياته وتثريها قراءة، وسبب ذلك عدم قدرته لحدّ الساعة على بلورة رؤية نقدية مسوغة أو منتجة من هذا الخطاب ذاته، ومن ثمّ اجتراح منهج نقدي يستمدّ مشروعيته من هذا الخطاب أيضا؛ يهتم بما يثيره من إشكاليات ويناقش ما يطرحه من قضايا، بمعنى آخر: الناقد العربي قد يعلم ولكن لم يع أو يدرك جيدا، أن المنهج النقدي إبداع وتفرّد واع له غاياته، مثلما أن النص الأدبي هو إبداع متفرّد سابق على النقد، وعليه: فأزمة المنهج في النقد العربي المعاصر، باعثها الرئيس التقليد والتبعية المفرطة لمناهج النقد الغربي، التي لم يفقه الناقد العربي العديد من إجراءاتها ولم يع

مقولاتها ولا مدلولات مصطلحاتها، كما لم يدرك أن هذه المناهج "حتى إن فُهمت أحسن فهم وأصحه . لن ينتج تطبيقها على الأدب العربي خيراً. ذلك لأنَّ هذه المقاييس قد استخلصت من دراسة أدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب العربي اختلافاً عظيماً"[34]، بيد أنّه يصرّ متجاهلا لما يفتقد إليه صنيعُه من حسن تدبيرٍ وفعاليةٍ، في تطبيقها على النصّ الأدبي العربي، فجاءت مقارباته- التي لم تؤطّرها رؤية نقدية خاصة ولم ترتسم لنفسها طريقا يؤول بها إلى أهداف وغايات محددة- مبتورة، عرجاء، مضطربة، قلقة باستمرار- لا فوائد لها تُرتجَى، ولا أحكام موضوعية ثبوتية متوخاة منها.

و بناء على السابق، نقول: ما دام هناك فئة كبيرة من نقادنا العرب المعاصرين يؤمنون حتى الثمالة، بأنّ الأخذ بنظريات النقد الأدبي الغربي، وتمثّل مناهجه بخطاباتهم النقدية تنظيرا ثمّ تطبيقا، تحصيل حاصل، بعدّها السبيل الأوحد للإجابة عمّا تثيره نصوصهم الأدبية من إشكاليات وما تطرحه من قضايا وانشغالات، ومادام أنهم يعتقدون ولو قليلا، بأن مناهج الآخر مكتملة في تكوينها لا بنسبيتها، و ناضجة بإجراءاتها لا بمحدوديتها، ومنه فلا مكان لنموذج ذاتي يضاهيها أو يكون بديلا لها، فإنّ إمكانية نقدنا الأدبي العربي المعاصر في إنتاج مناهج ذاتية متكاملة أو متمايزة فيما بينها، تبقى ضئيلة إن لم نقل معدومة حتى لا نحجب بصيصَ أملٍ، قد يكون بحوزة فئة من نقادنا، هم يشتغلون على استقلالية خطابهم النقدي وتفرّده منهجيا عن الآخر، و لو ثاقفه على سبيل الاستزادة لا التقليد، وهذا أمر يدركه في الحقيقة جلّ القائمين على الأدب العربي ونقده المعاصر، بيد أن هناك ما يعيق تفكيرهم على تجسيد فعل التخطي أو التجاوز؛ إذ كلّما حاولوا، قد "يقع الانفصام أو الانقسام الذهني، انقسام بين الطموح المستحيل والممكن الرديء، أو انقسام بين الوجدان وبين العقل، أو انقسام بين بنية ذهنية لم تتطور تطورا حقيقيا، و بين اضطرارات لرفع شعارات حديثة أو حداثية لمواكبة العصر، أو ادعاء العصرية، وإزاء كل هذا نعيش الأزمة"[35]،التي لا تضاهيها أو تماثلها أزمة في مسيرة نقدنا العربي المعاصر.

- كثافة التنظيروغربة النص العربي:

تعدّ هذه الإشكالية نتيجة حتمية للإشكاليات آنفة الذكر، المترتبة عن المثاقفة غير الممنهجة والراشدة من النقد العربي المعاصر لمناهج النقد الغربي، وأعتقد أنّ الوعي بجسامة هذه الإشكالية لوحدها؛ بإدراك أثرها براهنية النقد العربي المعاصر، ثمّ على آفاقه والمأمول منه، والعمل البحثي الجدّي على إيجاد سبل عاجلة غير آجلة لتخطّيها، كفيل اليوم قبل الغد، بتخليص نقدنا العربي المعاصر من أزمته؛ أزمة التيه المنهجي، وعدم فعاليته الإجرائية في مقاربة نصّه الأدبي العربي تحديدا؛ أزمة لم ينل منها نقدنا سوى حظّ التنظير المكثّف؛ بنقل مفاهيم ومقولات مناهج النقدي الغربي والاسترسال في اجترارها بمؤلّفات أعلامه، الذين غفلوا عن مسألة مهمّة هي "أن هذه المناهج مازالت هي نفسها تطرح علامات استفهام على بعض أسسها أحيانا، وعلى وظيفتها أحيانا أخرى...، أي مازالت بدورها محاولات رغم الخطوات الكبرى والمهمّة التي قطعتها"[36]، بل الغريب في الأمر حرص نقادنا وتفانيهم في تطبيق إجراءاتها تطبيقا آليا اسقاطيا على النص الأدبي العربي، مما فرض

عليه -بالتعسّف- حصارا بترسانة مصطلحية، مفهومية غريبة عنه، وأولجه في غربة غيّبت لغة التواصل الحقيقية بينه وبين خطابه النقدي، فَأُبْعِدَ بذلك حضوره الواقعي ووجوده المادّي؛ من منظور أنّه نصّ له كيانه اللغوي والثقافي له ظروف إبداعه وسياقات تشكّله، المغايرة لنصّ الآخر وما أنتجه خطابه النقدي.

ليس بخاف، أنّ النقد الأدبي في أبسط تعريف له"هو شغل على النصوص وهو بذلك ممارسة وهو كممارسة ليس تنظيرا على التنظير يكرر المفاهيم أو يضيف إليها ما يضيف، بعيدا عن النصّ"[37]، وإنما تحديده كممارسة يعني أنه "نشاط لا يكرر، بل ينتج، نشاط يتحدد بموضوعه، وهو إذ يتحدد به يختلف عنه ويتمايز في حقله الخاص"[38]، وهذا ما يؤكّده الباحث الفرنسي (برونو كليمان) بمؤلّفه (حكاية منهج)، حيث يرى أن النقد الأدبي "شكل من أشكال البحث الفكري، بل إنه بحث ذاتي يقرأ فيه الباحث أفكاره، وهو يقرأ أفكار غيره، بمعنى آخر؛ لكل باحث في النقد منهج يتضمّن حكاية، وإذ لكلّ حكاية يسائلها منهج خاصّ بها، وليس المقصود بوحدة المنهج والحكاية تسخيف البحث، بل دفاع عن أصالته، أي دفاع عن الفردية النقدية المبدعة، التي تعرف مناهج الآخرين وتعترف بها، وتسعى إلى تخليق تجربتها أي منهجها الذاتي"[39]، ومن هذا المنطلق يمكن التمييز بين صوت الناقد الحقيقي ومعلّم النقد- كما يقول الناقد (محمد صابر عبيد)- ،"حيث لا يكتفي صوت الناقد بعرض النظريات النقدية أصولا ومقولات وتلخيصها، مكتفيا بموقعة العملية النقدية نظريّا كما هو الحال لدى معلم النقد، بل يتعدّى ذلك إلى تسخير الآليات و التقانات التي تتيحها هذه النظريات لغرس الروح النقدية في عقل الناقد لسانا وذوقا وجسدا وحساسية، تلك الروح التي تطلق رغبته غير المحدودة في إحياء تمظهرات الخطاب وتجسيدها في لغة النصوص الإبداعية إلى درجة الإسهام الحقيقي والواضح في تطوير إنسانية المتلقي، وهو يتفاعل مع النص الإبداعي عبر النص النقدي تفاعلا روحيا..."[40]، وهذه إستراتجية لازالت الممارسة النقدية العربية تفتقد إليها، بل ظلّت في كلّ محاولاتها الباحثة عن التفرّد والاستقلالية متأرجحة بين أمرين لا وسطية بينهما؛ فهي "تتقاذفها رياح التقليد؛ إما للموروث والتمسك به، وإما للآخر الغربي الذي أنتج حركاته النقدية وفق حياته وفلسفته وأدبه"[41]، وعدم تمكّن النقد العربي المعاصر من تبيّن منهج نقدي واضح المعالم يخطّه بنفسه ويؤصّل لمفاهيمه، أبقاه في ديمومة تيه منهجي أبعده أشوطا إلى الوراء عما حققه غيره من إنجازات.

على سبيل الختام، نقول أنّ:

- المثاقفة، كما هي فعل حضاري ومطلب إنساني، هي أيضا عالم محفوف بعديد الفخاخ والأحابيل لذا؛ تحصينا للأمّة وحفظا لهويتها الثقافية، يتوجب أن يُسيّج فعل التثاقف مع الآخر بالإطار المرجعي المعرفي للأمة، وأيّ تواصل ثم إبداع ثقافيّ جديد هو انبثاق من هذا الإطار، ثمّ إبداع في حيّزه وإضافة له، دون أيّ نية في الانسلاخ منه أو إلغائه، وبهذا يكون فعل المثاقفة تكريسا لحق الاختلاف وحفظ الخصوصية بين الأنا والآخر، بدل المطابقة والتماثل الكلّي بينهما، وهي التزام بحق تداول المعرفة والتعاطي معها ، ولكن شرط البحث والتحرّي والتمحيص والمساءلة، لا الاعتقاد المسبق، فالتبعية والاستلاب.

- الخطاب النقدي العربي المعاصر- كما تؤكّد الناقد يمنى العيد-"تعوزه المفاهيم النقدية"[42]، وإعادة بنائه وتأصيل له، يضعه أمام تحدّ كبير هو إعادة إنتاج مفاهيم ذاتية، خاصّة به؛ مفاهيم تعكس انتماءه لواقعه وتحولات فكره، مستلّة من منهج بحثي نقدي عربي، يستمدّ أصوله الحقيقية من نصوصه الأدبية والمعرفة بتشكلاتها وحيثياتها، وعملية "إعادة إنتاج هذه المفاهيم في نقدنا يطرح ضرورة إقامة جسور [موضوعية هدمت بيننا وبين تراثنا النقدي، بيننا وبين ما كان منه بحثا علميا في ميدان اللغة"[43] والأدب، مقابل تواصل مع النقد الغربي يتشبث بالمساءلة والمساجلة، بهدف الاستزادة والشمولية دون توجس مسبق منه أو قطيعة مطلقة معه. بانتهاج هذه الإستراتيجية - أعتقد- أنّ النقد العربي يدرك سبيله إلى التأصيل ويحقق فرادته وتميّزه عن الآخر.

- قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس الكاسح: المثاقفة و المصطلح النقدي العربي :
http://www.alukah.net/literature_language/0/71010/#ixzz48Yy9r8ve
- حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م.
- حلام الجيلالي: المناهج النقدية المعاصرة من البنوية إلى النظمية. مجلة الموقف الأدبي.
- طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط 2009 م.
- يمنى العيد: في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، دار الآداب، بيروت، ط04، 1999م.
- يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط01، 2008م
- محمد محفوظ: الحضور و المثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، ط01، 2000م.
- محمد بلوحي: الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق (الأسس والآليات)، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2002م.
- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، ط02، 2000
- محمد مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، دار المعارف بمصر، 1968م.
- محمد صابر عبيد: صوت الناقد الحديث، مجلة عمان الثقافية، أمانة عمان الكبرى الأردن العدد123، أيلول 2005م.
- محمد خرماش: أبعاد المثاقفة في النقد الأدبي العربي المعاصر http://manahijnaqdia.3oloum.org/t8-topic
- سيد البحراوي: في نظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، 2008م.
- عبدالله إبراهيم: المتخيّل السردي، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط01، 1990م.
- على جواد طاهر: مناهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للكتاب، بيروت، 1989م
- فخري صالح: النقد و الأيديولوجيا، المؤسسة العربية ، بيروت، 1992م.
- فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الو.م.أ، ط01، 1991م.
- قصي الحسين: النقد الأدبي ومدارسه عند العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2010م.

- رواء نعاس محمد:المثاقفة و المثاقفة النقدية مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية العددان(03-04)المجلد(07) 2008م.
- شكري محمد عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر1993م.

هوامش البحث:

[11] - ينظر: رواء نعاس محمد: المثاقفة و المثاقفة النقدية، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (03-04)، المجلد (07) 2008، ص172. و ينظر أيضا: محمد خرماش: أبعاد المثاقفة في النقد الأدبي العربي المعاصر http://manahijnaqdia.3oloum.org/t8-topic

[2] - محمد مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، دار المعارف بمصر، 1968، ص101.

[3] - فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الو.م.أ، ط01، 1991، ص55.

[4] - القولان مأخوذان من كتاب: شكري محمد عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر1993، ص09.

[5] - للمزيد ينظر كتاب: قصي الحسين: النقد الأدبي ومدارسه عند العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2010، ص107-112.

[6] - محمد صابر عبيد: صوت الناقد الحديث (سؤال المنهج و دينامية النص النقدي الخلاّق)، مجلة عمان الثقافية، أمانة عمان الكبرى الأردن العدد123، أيلول 2005، ص04

[7] - عبدالله إبراهيم: المتخيّل السردي، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، ط01، 1990، ص05.

[8] - فخري صالح: النقد و الأيديولوجيا، المؤسسة العربية ، بيروت، 1992، ص29.

[9] - ينظر: سيد البحراوي: في نظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، 2008، ص 15-16.

[10] - طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط2009، ص10.

[11] - محمد بلوحي: الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق (الأسس والآليات)، دار الغرب للنشر، ط2002، ص134.

[12] - ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000، ص191.

[13] - ينظر: المرجع نفسه، ص239-240.

[14] - ينظر: محمد بلوحي: الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق (الأسس والآليات)، ص32.

[15] - حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 22.

[16] - ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص241.

[17] - ينظر: المرجع نفسه، ص241.

[18] - ينظر: المرجع نفسه، ص251-252.

[19] - سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص28.

[20] - محمد محفوظ: الحضور و المثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، ط01،2000، ص110.

[21] - محمد محفوظ: الحضور و المثاقفة، ص116.

[22] - المصدر نفسه، ص109

[23] - المصدر نفسه، ص109.

[24] - سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص33

[25] - المرجع نفسه، ص35.

[26] - رحمن غركان: ثوابت الإجراء النقدي (القراءة..المنهج...)، قسم اللغة العربية، كلية التربية بجامعة القادسية/ شباط 2010.

[27] - حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص20.

[28] - المرجع نفسه، ص13-14.

[29] - ينظر: إبراهيم أنيس الكاسح : المثاقفة و المصطلح النقدي العربي : http://www.alukah.net/literature_language/0/71010/#ixzz48Yy9r8ve:

[30] - يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، الدار العربية للعلوم، ط01، 2008م، ص56

[31] - ينظر: حلام الجيلالي: المناهج النقدية المعاصرة من البنوية إلى النظمية، مجلة الموقف الأدبي، ص13.

[32] - ينظر: على جواد طاهر: مناهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للكتاب، بيروت، 1989م، ص20.

[33] - عبدالله إبراهيم: المتخيّل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة)، ص06-07.

[34] - ينظر: حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص 20

[35] - سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص37.

[36] - يمنى العيد: في معرفة النص، (دراسات في النقد الأدبي)، دار الآداب، بيروت، ط04، 1999، ص128.

[37] - المرجع نفسه، ص26.

[38] - المرجع نفسه، ص26.

[39] - ينظر: طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص 13.

[40] - محمد صابر عبيد: صوت الناقد الحديث (سؤال المنهج و دينامية النص النقدي الخلاّق)، ص04-05.

[41] - حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص 09.

[42] - يمنى العيد: في معرفة النصّ، ص31.

[43] - المرجع نفسه، ص31.